رحلات مراوغ: في البحث عن ليون الافريقي المسلم الذي عاش بين عالمين:

محمد بن الحسن الوزان رجل الهويات والاسماء المتعددة ..صمت عندما تنصر وعندما عاد الى ارض الاسلام

ابراهيم درويش*

نتالي زيمون ديفيس

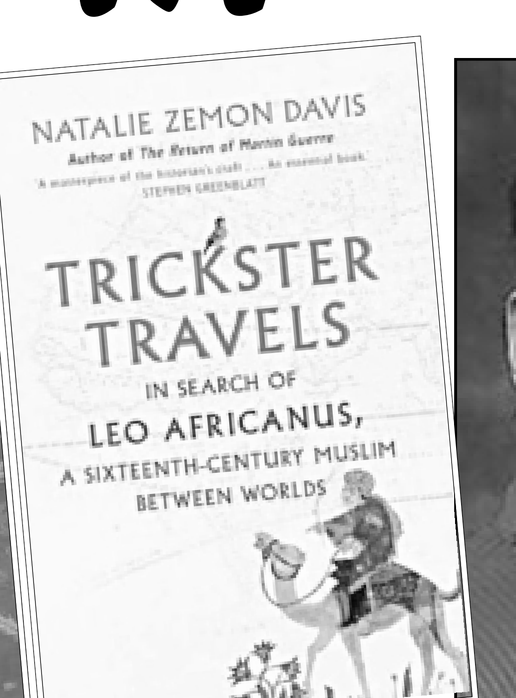

غلاف كتاب نتالي زيمون ديفيس

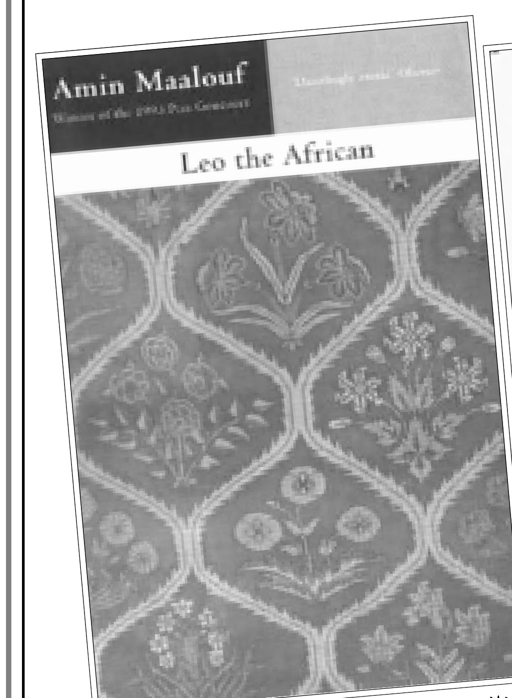

غلاف كتاب «البحث عن ليون الافريقي» لامين معلوف

■ في عام 1514 قدم ملك البرتغال مانويل الاول فيلا ابيض غنمه جنوده من الهند، كهدية الى البابا ليو العاشر، وقد طوف الفيل المسكين في شوارع روما في حفل اعد بطريقة دقيقة وعمده البابا باسم «انوني» او «هانو»، ورمزية الاحتفال الذي جرى بأمر من البابا لها علاقة بطموحات الرمز الديني المسيحي ببسط سيطرته على شمال افريقيا والمناطق حتى الهند. الفيل دخل الذاكرة الشعبية الايطالية، كتبت فيه الاشعار ووضعت صورته على المنتجات التجارية، وعندما مات امر البابا بوضع عبارات تخلد وصول هذا الكائن الغريب.

بعد اربعة اعوام قام قرصان اسباني بتقديم هدية جديدة للبابا، هذه المرة الرحالة والدبلوماسي والشاعر محمد بن الحسن الوزان الغرناطي، وجاء تقديم الغرناطي سفير امير المغرب للبابا كرمز لمحاولات وحملات البابا ضد العثمانيين ورغبته في هزيمة الاسلام، ورجل بعلم ومكانة وتاريخ الوزان سيتحول الى مصدر مهم للمعلومات عن العالم الاسلامي، خاصة افريقيا للدوائر السياسية والثقافية في روما التي بدأت تحس بمخاطر التمدد العثماني، ومع كل انتصار يحققه العثمانيون في البر الاوروبي او المتوسط كانت ترتفع وتيرة وحرارة الخوف لدى البابا الذي اخذ يدعو حكام اوروبا لتناسي خلافاتهم والعمل يدا واحدة ضد الدولة العثمانية التي دخلت جيوشها معظم شرق اوروبا. وصول الوزان الى روما بعد اسره في قلعة كان حدثا مهما حيث سجلته اقلام ومذكرات الشخصيات المهمة في ذلك العصر، وحفلة تعميده التي تمت بعد خمسة شهور كانت احتفالا كبيرا في ساحة سانت بيتر، وسجل قيم مكتبة الفاتيكان الكتب التي استعارها الوزان من المكتبة ولكن مقارنة مع وصول «هانو» الفيل الهندي لم تكن هناك احتفالات عامة وشعبية بوصول الدبلوماسي المسلم الذي عمد باسم مسيحي وصار نصرانيا، وسنواته التسع التي قضاها في روما لم تنل الكثير من الاهتمام الا بملاحظات عابرة من الذين قابلوه وعودته الى شمال افريقيا لم يتوقف عندها معاصروه الاوروبيون الا قليلا. والغموض الذي يلف حياة الوزان الذي سيحمل الكثير من الاسماء ايضا لم يقتصر على الفترة الاوروبية، ففي اثناء خدمته لسلطان فاس لم يرد ذكره في كتابات ورسائل القادة العسكريين او الدبلوماسيين البرتغاليين، كما ان رحلاته الى دول الصحراء الافريقية ووصوله القاهرة في الايام الاخيرة للسلطان المملوكي قانصوه الغوري لم تنل اهتمام مؤرخ تلك الفترة وزيارته للقلعة والسلطان لم يسجلها ابن اياس في سجلات الزوار التي كان يهتم بها بعناية ودقة. الغموض الذي يلف حياة الوزان لم يكن عائقا من كونه شخصية مهمة في مجال البحث والتأثير العلمي فمجموعة المخطوطات التي تركها وراءه في روما، حيث نشرت احداها عام 1550 ونالت حظوة وشعبية هائلة في ذلك الوقت. لغز الرحالة العربي بدأ مع صدور اول طبعة من كتابه الذي سيعرف باسم «وصف افريقيا»، فقد اختار ناشر الكتاب الاول جيوفاني باتيستا راموزيو الاسم المسيحي للوزان «جيوفاني ليوني افريكانو»، وتبنت اللغات الاوروبية بتنوعات مختلفة الاسم الذي ورد في الطبعة الاولى في البندقية ضمن السلسلة التي كان يصدرها راموزيو «ابحار ورحلات»، ومثل الف وليلة وليلة التي لعبت في المخيال الاوروبي شكل كتاب الوزان العقلية الاوروبية حول كل ما يتعلق بافريقيا لانه جاء من شخص عاش و «قال الحقيقة»، كما اكد الوزان في اكثر من موقع في كتابه. نسخة اخرى من الكتاب عثر عليها باحث سوري في مكتبة الاسكوريال في مدريد وحملت النسخة اسم الوزان العربي المسلم اضافة لاسمه المسيحي مع اسم الشهرة الذي ارتبط به «ليون الافريقي».

حتى القرن العشرين ظل ليون الافريقي شخصية هامشية ولم يكرس الكثير من الباحثين وقتا لقراءة الكتاب وتحليله، حتى بداية الاهتمام الفرنسي بافريقيا او «العلوم الاستعمارية» عن حياة وجغرافية والاثنيات والعناصر السكانية في هذه القارة. لوي ماسينيون المستشرق والباحث الفرنسي الذي سيرتبط اسمه بالدراسات الاسلامية والصوفية خاصة الحلاج، قدم اطروحته للدكتوراه في جامعة السوربون عن المغرب في القرن السادس عشر كما وصفها ليون الافريقي. اصدر ماسينيون كتابه عام 1906 وهو لحظة مهمة في تاريخ الاستعمار الفرنسي، حيث كانت فرنسا تحاول اقامة محمية لها على المغرب. تلونت عملية التعامل مع نص الوزان اذن بالمرحلة التاريخية، فآخر تعامل فرنسي «ضمن النظرة الاستعمارية للاخر» كانت محاولة اليكسس ايبولارد، الذي اعتمد على دراسات ماسينيون ونسخة عثرت عليها باحثة اخرى في ايطاليا، وتعتبر نسخته المترجمة جمعا بين عدد من النصوص، بما فيها النص الاول. مع ولادة جيل جديد من الباحثين المغاربة والافارقة او المتخصصين بافريقيا، ظهر تعامل جديد مع الوزان وكتابه، حيث تجادل الكتاب والباحثون وصفه لافريقيا السوداء او«بلاد السودان» بين من يرون انه قدم وصفا دقيقا عن ممالك ومجتمعات غير معروفة، خاصة انه زار كل الممالك المعروفة في زمنه حتى النوبة ومنها ذهب الى القاهرة، ومر على ممالك مالي وبحيرة تشاد، والنيجر. اما اخرون فقالوا انه قدم رؤيته عن هذه المناطق بناء على قصص جمعها وسمعها اثناء زيارته لتمبكتو، عاصمة مالي في بعثة لسلطان فاس، ولم يغادر هذه المدينة ابدا. كل هذا الاهتمام يظهر ان كتاب الوزان كان مهما في تشكيل الوعي الاوروبي عن افريقيا. ولهذا قامت الباحثة المغربية ام البنين زهري بتحليل ومتابعة ورحلات قادتها لامريكا، وقدمت دراسة عن اثر النسخة المطبوعة لكتاب الوزان على آراء الاوروبيين فيما يتعلق بالطبيعة وسكان افريقيا. وقامت الباحثة بدراسة الاثر هذا من خلال مراجعتها لمذكرات وكتابات الاوروبيين الادبية، ما اخذوه من الوزان، وما قاموا بصياغته او تجاهلوه. وهنا فان اول ترجمة لوصف افريقيا ظهرت بالعربية عام 1980 وقام بها محمد حجي، استاذ التاريخ في جامعة الرباط، بعد ان دافع عن اطروحته الجامعية حول الحياة الثقافية المغربية في القرن السادس عشر.

ويرى حجي مثل سابقه محمد المهدي الحجوي (1935) ان تنصر الوزان لم يكن حقيقيا وان هناك الكثير من الادلة التي تؤكد انه بقي مسلما ومات مسلما، من ذلك ما يشير اليه الحجي ان الوزان كان يشير عندما يتحدث عن المسلمين بعبارة «نحن». التوزع في التعامل مع شخصية محمد بن الوزان في اسمائه الكثيرة وهوياته المتعددة، وولائه الذي يشير الى «الاختلاف» اكثر من «الهجنة» يبدو واضحا في اهم عمل استعاد الوزان في قالب روائي تاريخي واعطى حياة جديدة له، مع انها محاولة لتقمص الكاتب شيئا من شخصية الرحالة المسلم الذي تنصر ظاهرا وظل مسلما في الخفاء. امين معلوف في روايته الذائعة الصيت «ليون الافريقي» (1986)، حيث قدم معلوف الوزان/ ليون الافريقي باعتباره مجازا او معادلا له ولهويته التي تجاوزت الخلافات وتعالت على الهويات اللغوية والدينية والقومية المحددة خاصة ان معلوف ينتمي الى بلد محاصر بالهويات والولاءات. يقول بطل معلوف «جئت من لا بلد، ولا مدينة ولا قبيلة»، ويضيف ليون الروائي واصفا نفسه « انا ابن المفاوز، بلدي هو القافلة.. كل اللغات والصلوات هي لي».

والوزان هنا لا يعاني من اشكالية الهوية وتوزعها، فهو يقول «انتمي لثقافة بلدي الاصلي وبلد المتبنى». فهو ابن قبيلة تذرع الصحراء وتعيش في الواحات، وعندما تجف مياهها تنتقل الى مكان آخر، عائلة الصحراء متشابكة، فالطرقات المتعددة لا تبني جذورا ولكن ثقافات. ليون امين معلوف، هو رجل من المتوسط عاش وعايش ثقافات متعددة. ومع انه شخصية مفتوحة الا انه فتح نقاشا حول هوية الكاتب وولائه وافكاره، خاصة تلك التي خلفها في وصفه لافريقيا. ويلاحظ في هذا الكتاب ان الوزان مارس لعبة حيلة او خداع للقارئ، كوسيلة للخروج من مأزقه، مأزق الهوية الجديدة. والقارئ لكتابه وفي باله البحث عن مفاتيح الهوية يلاحظ ان «وصف افريقيا» الذي كتبه الوزان، او يوحنا الاسد، وهو اسمه الذي اتخذه فيما بعد، يحمل لغة مخادعة حذرة، خاصة عندما يتعلق الامر بالهوية الدينية، فهو وان لم يمتدح الدين الاسلامي، دينه ولم ينتقص من المسيحية الا انه وهو الدبلوماسي العريق التزم لغة فيها الكثير من الحذر، وعندما يأتي الحديث مثلا عن اديان افريقيا الوثنية فانه يعرض الامر بلغة عامة، حيث يقول انهم ليسوا مسلمين او مسيحيين او يهودا. وفي استعراضه لتاريخ افريقيا ليس في محددها الجغرافي المعروف عند الكتاب الاسلاميين بل من خلال بعدها الجغرافي الاوروبي فانه يقدم ما يعرفه كمسلم حيث يشير بعبارات عامة لدين محمد الذي انتشر من خلال الدعوة. هذا الموقف المحايد او الغامض، واللغة الماكرة لم تفت على المترجمين الذين اضافوا عبارات تعبر عن موقفهم من الديانة الاسلامية، مع الاخذ بعين الاعتبار جو الخوف الذي كانت تعيشه اوروبا من تصاعد قوة العثمانيين، وجهود البابا لبناء تحالف يواجه الاسلام ويقضي عليه.

الوزان كان صامتا وهو يكتب كتابه بلغة غير لغته العربية، وقدرته على استخدام الايطالية لم تكن جيدة على الرغم من عشرة اعوام في روما، حول هويته الدينية الجديدة، فهو لم يشر اليها ولا الى اسره ونقله في الفاتيكان وتعميده، هذا الصمت هو جزء من استراتيجية الحيلة التي مارسها ليون الافريقي، فكتابته المترددة بين عالمين ووضعه الغريب والمتطرف جعلته ينتبه لحقيقة مهمة انه كان يكتب لجمهور مختلف اوروبي، واخر مسلم، ومن هنا فتوزعه بين هذين البعدين حتما عليه استخدام قناع يخفي هويته ويبدو محايدا، فهو عندما يكتب عن تاريخ افريقيا لا يتردد في نقد الممارسات الشعبية والطقوسية والخلط في معتقدات الافارقة، وفي الوقت الذي يثمن فيه جمال مدن الشرق الا انه ينتقد عادات الاكل من قدر واحد، حيث لا يلتفت الكثيرون الى اداب الطعام، يأكلون باصابعهم من قدر واحد وبسرعة، بدون مناشف او سكاكين، ويشربون في نهاية الطعام ابريقا من الماء، وهذا خلاف الاداب المعمول بها في الغرب. هذا لا يعني ان الوزان تغير بسبب وجوده في المغرب، فقد كان ناقدا للممارسات هذه ولكن ليس بتطرف الفقيه المغربي المغيلي، الذي اصدر فتاوى للممالك الصحراوية للتعامل مع غير المسلمين. يمثل محمد بن الحسن الوزان حالة متطرفة فأسره من قبل القراصنة الاسبان جاء استثنائيا، خاصة في ظل تسيد القراصنة المسلمين والتحالف بين عروج امير القراصنة وشقيقه خير الدين من جهة وامير تونس، والمنطقة التي اسر فيها تظل محلا للجدل، فربما اسر قرب جربة حيث كانت المحطة التي يستريح فيها المسافرون وهي المرحلة الثانية بعد مغادرتهم شواطئ مصر، او قرب جزيرة رودس عندما القى اتباع القرصان دون بدرو دي كابريرا يي بوباديلا، وبحسب التقرير فان السفينة التي اسرت في 18 حزيران (يونيو) 1518 كان على متنها 60 تركيا وربما كان الوزان واحدا منهم، الذي اتم مهمة دبلوماسية لسلطان فاس محمد البرتغالي. القرصان بدرو كان له شقيق هو اسقف سلامنكا، وهو الذي اعطاه الفرصة لكي ينقل الاسير من قلعة سانت انجليلو.

وكان اسره قد جاء في لحظة مهمة في تاريخ العلاقات المسيحية ـ الاسلامية، حيث كانت بداية القرن السادس عشر، والعقد الاخير من القرن الخامس عشر حافلة بالتغيرات ليس على صعيد اوروبا بل والعالم الاسلامي، الصراع الصفوي ـ التركي، والصراع التركي ـ المملوكي، والصراع بين ممالك دول الصحراء الافريقية، ومن هنا فان وصول دبلوماسي مسلم قابل السلطان سليم الثاني في الباب العالي كان خبرا مهما. ويعتقد ان الوزان لم يعذب او يعامل بطريقة سيئة عندما تم التعرف على شخصيته، ومن هنا فان قراره اعتناق المسيحية جاء بناء على حسابات ووضع حرج.

تعميد يوحنا الاسد/ الوزان الذي، اعطاه حرية التحرك الذي تم عام 1520، حيث وضعه البابا في عهدة ثلاثة من كبار المثقفين والمسؤولين في تلك الفترة، احدهما مير كابري، البرت بيو، احد طلاب فلسفة ارسطو وجامع كتب بالعربية والعبرية والارامية عن الدين والطب والفلك، وايغيديو دا فيتربو، احد المهتمين بالافلاطونية المحدثة والكابالا اليهودية، وهم الذين اغنوا رؤية الوزان عن الحياة الغربية، وعلى الرغم من علاقته مع الثلاثة الذي كان لكل واحد اهتماماته الادبية او العلمية والفلسفية، فالوزان ظل يعيش على حافة المجتمع. ونظرا لصعوبات حديثه باللغة الجديدة فان هذا اثر على وضعه الثقافي داخل حاضرة الفاتيكان، فقد كان مصدرا للمعلومات عن العالم الاسلامي، وليس مشاركا فيها، ولانه لم يكتب كتابا او دراسة فظل يعد داخل الدوائر الايطالية باعتباره خارجا عن الطبقات المثقفة. لا يعدم الوزان، وضمن ظروف ايطاليا في تلك الفترة لقاء عدد من المثقفين اليهود والعرب المسيحيين الذين كانوا منشغلين بترجمات للنصوص الدينية، من العربية واليها، وقد تعاون الوزان مع يهودي تعود اصوله الى الاندلس مثله على اعداد معجم عربي ـ عبري ـ لاتيني، وقد اسهم الوزان فيه ب 6600 كلمة عربية لكن المشروع لم يكمل بسبب انشغالاته. ومن بين المخطوطات التي تركها في فترته الاوروبية كتاب ينتمي لكتابات الطبقات الاسلامية، وقد كتبه من خاطره واعترف فيه بضعف الذاكرة، وكتاب في الفقه المالكي وكتاب عن الوقائع الاسلامية، واخيرا كتابه الاهم «وصف افريقيا».

قصة محمد بن الحسن الوزان/ ليون الافريقي/ يوحنا الاسد تعيد الباحثة والمؤرخة الامريكية ناتالي زيمون ديفيس تشكيلها في كتاب صدر حديثا عن دار «فابر اند فابر»، بعنوان «رحلات مراوغ: في البحث عن ليو افريكانوس، مسلم من القرن السادس عشر بين عالمين»، وهي تلاحق الوزان منذ كان صبيا عندما رحلت عائلته الى فاس بعد او قبل سقوط غرناطة، ورحلاته مع عمه الى مناطق البربر، ومن رحلاته الى السلطنات المغربية مبعوثا لسلطان فاس، ورحلته لافريقيا، واخيرا زياراته للقاهرة وتركيا، ورحلته الى روما. وتعيد ديفيس حكاية قصة الوزان عبر طرح عدد من التساؤلات وتخيل سيناريوهات والدخول في عقل الرحالة الذي ترى ان كتابه «وصف افريقيا» كان اهم ما كتب وترك اثرا على جانبي البحر المتوسط، ولكن صمتا يغلف حياة كاتبه سواء في المصادر العربية والغربية. وتعيد ديفيس رسم الحياة الثقافية في المغرب والفاتيكان، روما، حيث تطلعنا على عالم مليء بالتطورات السياسية والتساؤلات الثقافية والشهوة للمعرفة التي اسهم فيها الوزان بقدر مهم، وتلاحق الكاتبة سيرة بطلنا ورحالتنا حتى عام 1527 حيث رحل الوزان عن روما. وهنا يختفي اثره الا من اشارات لبعض رعاته انه رحل الى تونس التي كتب عنها كثيرا، وهناك اشارات اخرى انه كان يفكر بالرحيل الى القاهرة، خاصة بعد ان اصبحت العودة للمغرب نوعا من الاستحالة، للخوف ولتغير الظرف السياسي، وايا كان فقصة الوزان تنتهي عندما يقطع البحر مرة ثانية نحو بلاده الاصلية ويستعيد ايمانه، في نهاية رواية «ليون الافريقي» يحدثنا الرحالة حديث الرجل الحكيم الذي اثقلت كاهله السنون، وينتظر الرحلة الاخيرة للقاء ربه. كتاب جميل يفتح افاقا جديدة لمعرفة عالم ضائع وصورة مغامر مسلم، كان قدره ان يقع في الاسر ويقدم هدية للبابا في الفاتيكان، ولولا الاتراك لما كان الوزان بصفته دبلوماسيا وفقيها ليحظى باهتمام البابا او مسؤولي الفاتيكان. سيرة الوزان الجديدة تقدم بعض المفاتيح لفك لغز الرحالة الماكر، المراوغ. بالنسبة لديفيس، فالوزان شخصية تفهم من خلال النص، فهو نص اكثر منه شخص «حقيقي»/ رحالة ومغامر، وما كتبه يعتبر اهم من حكايته الحقيقية، وهي ككاتبة ومعلقة على التاريخ الثقافي ومؤلفة كتاب مهم صدر عام 1983 عن سرقة الهوية والشخصية تدور في نفس القرن الذي عاش فيه الوزان، القرن السادس عشر، «عودة مارتن غويري» كانت قادرة على بناء الزمن وتنوعاته، خاصة في اوروبا بدايات عصر النهضة.

تنتهي ديفيس في بحثها عن اشارات والغاز للتخلي عن مهمتها البحث عن مصير الوزان الذي لم نعرف ما حدث له بعد نهب روما 1527، وتنهي كتابها بتخيل لقاء بين الوزان وأحد كبار كتاب النهضة الاوروبية فرانسوا رابلياس متسائلة عن اثر وصدمة اللقاء بين عقلين مختلفين في روما .. يبدو ان الكاتب المراوغ، مثل الطير المراوغ في الاساطير العربية، رواغها وخدعها وقررت التخلي اخيرا عن مهمة البحث عن مصير الكاتب.

ـ ناتالي زيمون ديفيس مؤرخة وكاتبة نسوية ولدت عام 1928 في ديترويت، وتقول ان علاقتها مع الوزان بدأت قبل نصف قرن عندما انهت رسالتها للدكتوراه عن النهضة في فرنسا، ولها العديد من الكتب منها «العبيد على الشاشة: الفيلم والرؤية التاريخية»، «الهدية في فرنسا القرن السادس عشر»، «نساء على الهامش: ثلاث حكايات من القرن السابع عشر».. وتعيش الان في تورنتو، كندا.

---

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

Trickster Travels: In Search of Leo Africanus,
a Sixteenth-Century Muslim Between Worlds
Natalie Zemon Davis
Faber & Faber 2006

الرواية ابنة جنسها الادبي وليس جنسية كاتبها

خليل الرز*

■ سأحاول قدر الإمكان، أن تتقاطع شهادتي عن مساهمتي الروائية مع موضوع المهرجان «خصوصية الرواية العربية». أقول سأحاول، لأن لمفهوم الخصوصية عندي مفهوماً قلقاً وملتبساً، ومن ثم قابلاً، وبسهولة، لأن يشي بنقيضه. سيأتي ذلك في سياق عرض أفكار أتبناها حتى الآن وأتجنب عادة تقديمها بصورة قناعة «دينية» راسخة لأنها، أولاً، لم تسقط عليّ قطعة جاهزة واحدة، ولأنني ثانياً، لن استميت في الدفاع عنها، فأنا أرتاب فيها هنا وهناك وسوف أتخلى عنها عندما أكتشف أنها لم تعد مفيدة لي أو أخضعها مرة أخرى وأخرى لتعديلات لن يكون لها نهاية.

أبدأ بالقارئ نظراً لغيابه اللافت أو لوجوده الصعب والنادر في مجتمعاتنا العربية. هل أذكّر بالأرقام والمقارنات؟ لا بأس من بعضها. في تسعينيات القرن الثامن عشر كان عدد سكان إنكلترا ستة ملايين نسمة، وكانت مبيعات الكتاب الواحد تتراوح بين عشرة آلاف ومئة وخمسة آلاف. ووزارة الثقافة تطبع الآن ألف نسخة من كل عنوان، يذهب منها ما يقرب من ستمئة وخمسين نسخة إلى مؤسسات الدولة، وحوالي مئة وخمسين نسخة هدايا لأفراد بما فيها حصة المؤلف، وهكذا يبقى لكل القراء السوريين في كوّات المراكز الثقافية وللقراء العرب عبر معارض الكتب في العواصم العربية مئتا نسخة. هل أذكّر بعدد سكان الدول العربية؟ نحفظه عن ظهر قلب، ولكن هذا الرقم العزيز الهائل من البشر يقابله رقم لا يصدّق عن متوسط ما يقرؤه الفرد العربي: ست دقائق في العام حسب اليونسكو في تقريرها الصادر منذ سنوات. هذا الواقع، المرير إذا شئتم، يريحني شخصياً على الأقل من الخلاف حول جماهيرية الأدب ونخبويته، إذ يحوله بلا هوادة إلى خلاف بلا موضوع، ولكن من ناحية أخرى يضعني أمام سؤال حيوي ومحرج: لمن اكتب إذاً ولماذا؟ بخاصة إذا كنت، حين أكتب، لا اكتفي، لا بقصص حبي الفاشلة، ولا بالمسلسلات التلفزيونية أو بالانطباعات الحارة من بعض الروايات ولا بالمعتقدات التي أؤمن بها أحياناً ولا حتى بانتسابي إلى اتحاد الكتاب بعد نشري روايتين. لا أود هنا أن أُخسّر الكتابة كل مسوغاتها لأنني، أنا نفسي، لن أحبط نفسي، ولكنني بالمقابل لن أصوّر الكتابة في مجتمع لا يستهلكها على أنها عمل بطولي. لقد تعلمت أن أتقبل كساد بضاعتي تلقائياً كما أتقبل ذباب الصيف ولكن استمراري بإنتاجها ليس عملاً استشهادياً بالتأكيد. دائماً كانت البطولة تبدو لي نوعاً من البطالة، ولا أعرف حقيقة كيف يمكن ربط البطولة بالعمل، فالأبطال بالعادة لا يعملون إما لأنهم أموات أو لأنهم مشغولون بتبجيلهم. ثم ان الأدب عمل محدد لا يمكن اعتباره من الأعمال غير المحددة التي يقدم عليها عادة الجنود المجهولون على سبيل المثال. لتكن الكتابة إذاً في بلداننا عبثاً أو موقفاً من العالم، فأن لا يشعر بك محيطك لا يعني أن لا تكون شاهداً عليه. من ناحيتي لا أرى غضاضة في شنشلة الأدب بالغايات السامية بل والمتعالية، ولكني أفضل أن تكون الكتابة مجرد عمل، عمل متقن رغم كل شيء. وبما أن الكتابة لا تتم إلا بالقارىء فقد وجدت نفسي، منذ مدة طويلة نسبياً، أتخيل قرائي في مكان لم أستطع تحديده حتى الآن. وما دام الخيار متروكاً لي فإن قرائي هؤلاء هم مجتهدون وعلى قدر كبير من الاهتمام بالفن الروائي، فقد قرؤوا دوستويفسكي وغورنتشاروف وبيلي وفلوبير وبروست وساروت وكونراد ووولف ومانسفيلد وأونامونو وفيتزجيرالد وكورتازار وساراماغو وسواهم، ولذلك احرص على أن أبدو لقرائي بما تنضح به رواياتي، أنني مثلهم قد قرأت، معهم أو قبلهم بقليل، هؤلاء المعلمين، وحاولت وأحاول بقدر ما تسنى ويتسنى لي من المثابرة أن أفيد منهم عامداً متعمداً.

حين أقول الرواية الآن لا أعني الرواية السورية بل الرواية بكل اللغات التي كتبت بها منذ نشوئها، أقول الآن لأن الظرف مختلف بالنسبة للروائي على الأقل عما كان عليه قبل خمسين عاماً بحكم قرارات فوقية لمؤسسات شجعت على الترجمة ولاتساع الهامش الذي ما زال ضيقاً للقارئين باللغات الأجنبية من الكتاب. وهكذا سيصعب عليّ في مثل هذا الظرف أن أتحدر روائياً من شكيب الجابري لمجرد أنني سوري، فالريادات الروائية، كما أظن، لم يعد لها الآن غير قيمتها الأحفورية إذا لم تكن قد أخذت بالاعتبار منجزات الرواية التي تحققت قبلها لدى الأمم الأخرى بمختلف لغاتها.

ويبدو لي أن الأوان قد آن أخيراً للمقارنة الظالمة بين «غابة الحق» و«زينب» و«قدر يلهو» وبين «الأخوة كارامازوف» و«مدام بوفاري» و«قلب الظلام» و«البحث عن الزمن المفقود» و«عودة إلى الإعدام» ما دامت كل هذه الروايات في متناول يدي، وما دامت قد كتبت في فترات متقاربة. وهذه المقارنة ضرورية لكي لا تعني الريادة لي البدء من الصفر.

أما إذا أصررت رغم ذلك على اعتبار روايتي مخلصة في تحدرها من الروايات المعروفة في الرواية السورية أو العربية فإنما أفصح بشجاعة عن موقف أيديولوجي قد يعنيني كمواطن ولكنه لن يعنيني كروائي بالتأكيد. لم يكن غوغول أول الناثرين الروس ولكنه اعتبر رائدهم لأن أعماله كانت الثمرة الأنضج للتأسيس عليها.

وإن المتتبع لحركة الرواية في صورتها الشاملة ليجد تياراتها وشخوصها تعبر الحدود السياسية الصارمة من بلد إلى بلد، ومن امة إلى أمة، فليس من باب المصادفة أن تتصادى وتتشابك الحركات الأدبية والفنية في هذه الأمم والبلدان وفي ما بينها. لم يكن غويا فرنسياً ولا عاش في باريس لكنه كان الأجدر، قبل دولاكروا بقليل، بتمثيل الأفكار الثورية في فن التصوير من معاصره دافيد الملتصق بنار الثورة الفرنسية، والذي لم ينتمِ إلى عصره إلا بسكب صوت العقل ونداء الواجب وحب الوطن على سطوحه الزجاجية وبين كتل أبطاله ـ المرمر المشتقّين من التماثيل الرومانية. وقد أكمل غوته في «فاوست» مثلث الإنسان الحديث الذي بدأ بـ «هملت» و«دون كيخوت»، والذي سيؤسس عليه الكتاب الروس على طول القرن التاسع عشر بطلهم «الفائض» في أعمال تورغينيف ودوستويفسكي وغونتشاروف وفيلهم بوشكين الذي وجد قناة أخرى إلى البطل نفسه في شخصية وأعمال اللورد الرومانسي المتمرد بايرون، فيتردد صداه في «يفغيني أونيغين» و«دوبروفسكي»، ثم ما يلبث هذا البطل أن يظهر في القرن العشرين، بتسميات مختلفة أحياناً، لدى شعوب أخرى، بعد معالجته الروسية العميقة، فتلمحه عند كافكا وكامو وميشيما في «اعترافات قناع» على وجه الخصوص.

وبذلك تقوم الرواية على أيديهم بواحد من انتحالاتها المبكرة لتقانات الفنون الأخرى وبحركتها المميزة بين اللغات المختلفة. وما كانت هذه الحركة الطليقة ممكنة لولا الظرف الجديد الذي لم ينشأ بحكم قرارات فوقية كما حدث عندنا في الخمسين سنة الأخيرة لنجد أنفسنا نحن الكتاب بلا قراء ملموسين، بل بحكم تغيير بنى المجتمع الأوروبي عموماً منذ الثورة الصناعية، والأنوار، والثورة الفرنسية، فالقطارات البخارية أثبتت أنها الأشد سرعة وتأثيراً حتى من الحملات العسكرية، ليس فقط في تبادل سلع الصناعة بل وسلع الفكر والفنون. لقد تسنى لبلزاك ثم زولا أن ينشرا أعمالهما في باريس وبيتربورغ في العام نفسه، ولغوته أن تترجم له «فرتر» مثلاً أربع مرات إلى الروسية خلال عشرين عاماً بين 1780 ـ 1800. وإذا كانت الرواية اليابانية قد عالجت منذ مطلع القرن العشرين وبحدة ومعاناة موضوع الشخصية التقليدية اليابانية في علاقتها مع الغرب الذي حضر بقوة مع تصنيع بلادهم منذ عصر الميجي فإن الروائيين اليابانيين فعلوا كما فعل صناعيّوهم معتبرين أن الخبرة الصناعية لا وطن لها ولا تتجزأ، والرواية شجرة واحدة والهوية فيها لا يمكن أن تتعدى مادتها الخام، حتى ميشيما الذي كان شديد المعاناة من انخراط يابانه في نمط حياة تجاوزت تقليديته العزيزة على قلبه، وجد نفسه مخلصاً للرواية باعتبارها حرفة، ومن ثم وريثاً لكل تقاناتها التي راكمتها عبر تاريخها الإنساني. حتى في مسرحيات «النو» ذات الخصوصية اليابانية حاول ميشيما أن يصالح في البداية بينها وبين أشكال المسرح العالمي، ثم ما لبث أن كتب مسرحيات خالصة الانتماء إلى الأساليب غير الوطنية، وقد لاقت استحساناً كبيراً لدى اليابانيين وسواهم رغم أحلام المؤلف الوطنية التقليدية، وربما كانت هذه الازدواجية المتأزمة أحد أسباب انتحاره، فهو بالنهاية شارك في تهجين وطنه الغالي، فجاء انتحاره على طريقة فرسان الساموراي انتصاراً معنوياً متأخراً لليابان المفقود واعتذاراً له. إنني لا أدعو طبعاً الكتاب العرب غير الحريصين على الانتماء لرياداتهم المحلية الأحفورية أن ينتحروا لأن خصوصية بلدانهم ما زالت آمنة على كل حال من الصناعة والعلوم ومن ثم لن يضمنوا، حتى ولو انتحروا بسيوف عربية أصيلة، قراءً بمعدلات لا يندى لها الجبين في إحصائيات اليونسكو المقبلة.

أردت فقط أن أقول إن تقسيم الرواية بحدود اثنية صارمة عملية تبدو لي مستحيلة، فالرواية في اعتقادي لا تنتمي إلى شعوب وأفخاذ بل إلى سلالة جنسها الأدبي فقط، السلالة غير العرقية التي شاركت بها وطورتها أقلام كثيرة من لغات عديدة سوف تنتسب إليها أقلام من لغات أخرى بأفضل إمكاناتها السردية. أما إذا حلا لأحد أن يفرض هذه الحدود فله أن يفعل ذلك ولي أن أفهم أنه يفعله لأهداف غير أدبية. وهكذا حين أسمي الرواية بالفرنسية أو بالإنكليزية أو بالروسية، لا أفعل ذلك لتمييز أدوات بل لتمييز واقع عن واقع، مادة خام عن مادة خام. وربما نجد الآن في ضوء ما قيل الإجابة عن السؤال: لماذا لم تشكل الرواية العربية ظاهرة على غرار الروايتين اللاتينية ـ الأمريكية واليابانية مع أنها بدأت كرونولوجيا معهما تقريباً؟ هل لأن العرب مستهدفون من قوى الشر في العالم؟ أم أن ظرف صراعنا مع إسرائيل فرض على كتابنا الهمّ الايديولوجي فترة طويلة من الزمن، فاشتغلوا عليه تحت وطأة تضخم الحاجة للشعور بهويتنا؟؟ أم أننا أنفقنا عشرات السنين من الكتابة بعقلية ابن الريف في نزوله الأول إلى المدينة حين يُعمي عينيه بكرامته التي يمكن أن يهدرها له أي تاجر في السوق؟؟

من ناحيتي أحاول أن لا انشغل بما يسمونه صراع الحضارات، والغرب بالنسبة لي ليس الآخر النقيض، فالتبادل المعرفي، حتى على خلفية الحروب، لم ينقطع منذ انتقلت أزهار اللوتس وطيور النيل إلى خزف كريت، ومنذ علّم الفينيقيون أبجديتهم للإغريق. وبما أن تاريخنا لا يبدأ في القرن السابع الميلادي فنحن بصورة ما رومانيون وبيزنطيون وأندلسيون وعباسيون. إن ثلاثة آلاف سنة كافية بالنسبة لي لأن اقتنع بأننا أطراف في حوار مثمر طويل، ولا أفهم كيف أفخر بمسرح بصرى والمسجد الأموي وجوليا دومنا والأفلاطونية الجديدة ثم اعتبر الغرب الآخر المضاد. أشعر بأنني معني بكل ما كتب، وبكل ما حدث على الأرض من تواريخ وصناعة وزراعة وروايات ومسرحيات وقصور ومعابد وقصائد ولوحات وفلسفات، فالرواية فن يتسع لكل ذلك. فقط لو أفيد من كل هذه الوفرة! ما زلت أفكر، ما زلت أعمل.

---

* كاتب من سورية

■ شهادة قدمها الروائي السوري خليل الرز في مهرجان العجيلي الثاني للرواية في الرقة.

قصص

فنجانا قهوة

رشاد أبوشاور

■ تتّجه كما في صبيحة كلّ يوم أحد إلى المقبرة. تغادر شقّتها مبكّرة، تنزل من سيّارة التاكسي في شارع قريب، ثمّ تمشي متمهّلة في شارع قصير محاط بأشجار السرو الباسقة الخضراء.

عرفت أنها فقدته بحادث سير، فهو لقي مصرعه فوراً، وهي أصيبت بعرج طفيف غير ملحوظ في ساقها اليمنى.

لفتا انتباهي منذ سنتين، هي كانت تجلس في المقهى، تختار طاولة على الرصيف صيفاً، تكوّم أمامها صحفاً ومجلاّت، تقرأها وتتصفحها مع فنجان قهوة ترتشف منه قطرةً قطرةً، ثمّ تدفع حسابها ـ يبدو أنها كانت تبغشش النادل، لأنه كان يبالغ في احترامها، ويحرص على حجز الطاولة نفسها لها ـ وتمضي بخطوات قصيرة، متمهلة.

فجأةً ظهر معها، هكذا في أحد الأصبحة رأيتهما معاً، وهما يتهامسان ويضحكان بصمت، وكأن العلاقة بينهما قديمة جداً.

يوم الأحد لم يعد يومها وحدها، بل صار يومهما معاً، ويومي أنا الذي تقريباً أصل المكان مع حضور النادل وصاحب المقهى.

لمّا ظهر معها غرت منه، بل لعلّي بلغت ما هو أبعد من الغيرة، أقصد: الغيظ والنفور!

لكنه مات، فحزنت عليه، وقد أعلمني بالحادث النادل (وصفي)، فندمت لأنني غرت واغتظت منه. لعلّي كنت أتعللّ به لأبرر عدم اهتمامي بالفتاة ـ عرفت أن اسمها (رباب) ـ قبل ظهوره في حياتها...

أعترف أنني بت فضولياً، وأنني سبقتها إلى المقبرة، ولبدت بين أشجار الصنوبر، وتمكنت من رؤيتها وهي تنحني على القبر، وتتمتم بكلمات حب كما قدّرت، ثمّ تنتصب قامتها، وتمدد الوردة البيضاء ذات الساق النحيلة على رخامته، وتمسّد على الرخامة كما كانت تمسّد على عنقه وهما يهيمان ببعضهما تحت ناظري، حول طاولة صغيرة على الرصيف بين الصباح والظهيرة كل يوم أحد...

كان وصفي يأتيهما بفنجاني قهوة، دون أن يطلبا، فهو يعرف ما يريدان.

بعد موته واظب على وضع فنجاني القهوة على طرفي الطاولة ـ بحسب رغبتها، كما أخبرني وصفي ـ هي تشرب فنجانها، وترمق الفنجان الآخر، كأنما تنتظر مجيء صاحبه.

بت أتحرّق شوقاً ليوم الأحد، لأراها، وأتأملها وهي تتصفّح الجرائد والمجلاّت، أو وهي تصفن طويلاً شاردة النظرات، كأنها لا ترى من حولها، ولا تسمع أبواق السيّارات التي تمرق على مبعدة حوالي المتر فقط من حيث نجلس على الرصيف.

أسبوعي كلّه، بكلّ أيامه، صار ينقضي بطيئاً، بانتظار يوم الأحد.

أنا وقعت في الحب، أنا الوحيد، الموظّف في البنك منذ أربعة أعوام، القادم من (الضيعة)، الذي انتظرت الوظيفة والاستقرار، و.. انتظار اللقاء مع من سأختارها شريكة.

لا أعرف عنها الكثير، ومع ذلك أتحرّق شوقاً لرؤيتها، لتأملها وهي تقرأ، لمتابعتها أحياناً وهي تزور المقبرة، وهي تمدّ وردةً بيضاء ذات ساق نحيلة طويلة على رخامة القبر...

التفاتةً عابرة، جعلتها تنتبه لنظرتي المركزّة عليها، ومضة، شرارة بين أعيننا، كهرباء..جعلتنا ننظر واحدنا إلى وجه الآخر في صباحات الأحد، ثمّ طيف ابتسامة، وإيماءة طفيفة بالرأس تشبه أن تكون : صباح الخير، أنا ألحظ اهتمامك، كيف تقضي أيّامك؟

فنجانا القهوة على طرفي الطاولة الصغيرة، ترتشف واحداً، ويبقى الآخر ينتظر من مضى ولن يؤوب...

أهو غموضها ما يجذبني، أم حزنها، أم..؟!

تغص المقهى بالزبائن، ولكننا نصل قبلهم، فنختلس النظرات، أنا أقلّب صفحات الجريدة ، وهي تقرأ وتخربش، أهي ترسم، تكتب، ماذا تكتب ؟

شعرها الكستنائي مسرّح من منتصف الرأس، تسريحة بسيطة عمليّة...

غالباً ما ترتدي بنطلون جينز، وأحياناً ترتدي تنورّةً رماديّةً، وقميصةً بيضاء، وفي الصيف يبدو القميص الزهري مضيئاً لوجهها، يجعله بلون زهرة ناعمة شفّافة...

اتخذت قراري، فالتردد بات معذّباً، وأنا لست مراهقاً لأتلذذ بصبابتي...

قلت لنفسي: هذا الأحد سيكون غير الأحداث السابقة...

صبّحت على (وصفي)، وتمشيّت قليلاً على الرصيف الخالي من المارة، وكأنما أنا رياضي أستعد لمباراة حاسمة...

أخذت مكاني على طاولتي المعتادة، وركّزت نظراتي على الجهة التي اعتادت المجيء منها...

بالضبط وصلت في الموعد المعتاد، التقت نظراتنا، فرأيت على وجهها طيف ابتسامة ـ أأنا واهم ؟ـ فابتسمت وتمتمت: صباح الخير يا حبيبتي (هذه أوّل مرّة أهمس بكلمة حبيبتي).

وضع وصفي فنجاني القهوة على طاولتها كالمعتاد، فمدّت يدها إلى فنجانها ورفعته إلى فمها.

انشغلت في تقليب صفحة الجريدة، فنهضت بهدوء، واتجهت إليها، وجلست دون استئذان، ومددت يدي إلى الفنجان و..التقت نظراتنا، ورغم الدهشة التي بدت على وجهها، فقد سمعتها تقول لي:

ـ ما زال ساخناً، يمكنك أن تشربه...

ـ لن يبرد بعد اليوم، أليس كذلك؟

ـ ممكن، لم لا ؟